عمّان: ملاحظات على هامش الحركة المساندة للانتفاضة ـ محمد علي كياناً سياسيّاً عقلانياً

إبراهيم علُّوش

أين ذهب محمد علي؟

لنفترضْ أنّ ثمة مواطنًا عربيّاً اسمُه محمد علي. محمد علي، في العادة، مثقل بالهموم المعيشيّة والخاصّة، وقد تم تهميشُه في عمليّة صنع القرار السياسيّ المتعلّق بشؤونه العامة طوال قرون. إنّه لاجئ سياسيّ على أرض بلاده. مجرد غريب.

محمد علي يحترق غضبًا بسبب كلِّ ما يراه حوله. لكنه لا يحتاج إلى إظهار ذلك دائمًا؛ فقد تعلّم أنّ أيّ تعبير حقيقيّ عن السخط باهظُ الثمن. بيد أنّ انفجاراته العفويّة بين الفينة والأخرى تدلّ على وجود نبضات حيويّة في أعماق وعيه (الجمعيّ).

وهذا لا يقول شيئًا بعدُ عن مدى فائدة هذه الانفجارات العفويّة أو فاعليّتها، سوى أنّ ردّ الفعل الشعبيّ العربيّ إبّان حرب الخليج الثانية، وتحريرِ جنوب لبنان، والانتفاضةِ الثانية، بل ردّ فعله على أغنية مثل «أوبريت الحلم العربيّ،» يدلّ على وجود إشارات حيويّة قويّة. وبهذا نعرف، على الأقلّ، أنّ محمد علي يضطرب في الأعماق.

فلنلاحظْ كيف نزل محمد علي إلى الشوارع في تشرين الأول ٢٠٠٠، أيْ في الأيام الأولى للانتفاضة الثانية، كطوفان من الغضب الخام، ليواجه القمعَ على أيدي رجال الأمن، وكيف عاد في آذار ونيسان ٢٠٠٢ إلى سَوْرة غضبٍ أكثر عنفًا على نحوِ ما أظهرتْ وسائلُ الإعلام.

إنّ هذا أمرٌ مثيرٌ للفضول فعلاً. فمحمد علي كان مستعدّاً للمخاطرة بعمله ودراسته، وللتعرُّض لشتّى صنوف الضرب والاعتقال وما شابَهَ في تشرين الأول ٢٠٠٠، ولكنْ ليس في تشرين الثاني وما تبعه، وما لبث أن عاد إلى الشارع في آذار ونيسان ٢٠٠٢ ، ليبدو بعدها وكأنه أخلد إلى الهدوء!

بدا محمد علي كمن تملّكتْه اللامبالاة، فاترًا بعيدًا، بعد تشرين الثاني ٢٠٠٠. لم تعد الفعاليّات التي يدعو إليها النشطاءُ تجذب جمهورًا ذا شأن: بل في الكثير من الحالات كان عددُ قوات الأمن التي تَنْتظر أكثرَ من عدد المتظاهرين. وفي الأردن على الأقل، بدا النظام وكأنه سيطر على حركة الشارع مجدّدًا بعد قيام أحزاب المعارضة بإلغاء مسيرة الزحف المقدّس التي كان يُفترض أن تتمّ يوم ١٢ نيسان/ أبريل ٢٠٠٢ على السفارة الصهيونيّة.

ماذا حدث؟ أين ذهب محمد علي؟ بدأ عددٌ من النشطاء المستقلّين يتفكّرون بما جرى.

عادةً، محمد علي، القادمُ من التظاهرات الكبيرة نسبيّاً التي وقعتْ فيها صداماتٌ في عمان على الأقلّ، طالبٌ أو عاملٌ يعيش في الأحياء الشعبيّة أو المخيّم، أو طالبٌ يعمل على الهامش ليساعد عائلته. يومٌ واحدٌ في السجن يؤثّر سلبًا في عائلته. في الحالات الأكثر خطورةً، قد يُمنع من العمل أو الدراسة؛ وهذا ضررٌ دائم. قد يصادَر جوازُ سفره، كما كان يحدث أيام الأحكام العرفيّة، فلا يعود قادرًا على الدراسة أو العمل في الخارج. وهو ليس معروفًا في الدوائر الإعلاميّة؛ فحين يَقْبع في السجن أو المستشفى، لا أحد يسمع عنه شيئًا.

بعد تفرّق إحدى التظاهرات مرةً، لاحظتُ ثلّةً من سيارات الأمن تَتْبع مجموعةً من حوالى عشرين طالبًا. اقترحتُ عليهم أن يتفرّقوا كيْ لا يصبحوا عرضةً للانتقام. تفرقوا إلى مجموعاتٍ من ثلاثة إلى خمسة، لكنْ يبدو أنّ ذلك لم يكن كافيًا لرجال الأمن. فقد توجّهوا نحو واحدٍ من الطلبة بالتحديد. ركض. لاحقوه. فجأةً، اعترضتْه قوةٌ عند الشارع الثاني. تبعتُ. وجدتُه ممدّدًا على الأرض في حقلٍ سوريالييٍّ من الرفس والضرب العنيف، أَشْبه بمشهدٍ من الضفّة الغربيّة، لا عمّان. حاولتُ التدخُّلَ بلا جدوى. «اذهبْ وإلا...» حاولتُ التكلُّم. لا جدوى. ذهبتُ. تبعني اللباسُ المدنيّ. «قف. مَنْ أنت؟ هويتك!» ومن الخلف جاء صوتٌ: «أَحْضروه.» «ما علاقتكَ به؟» «أستاذ جامعي؟ ماذا تفعل هنا؟» «كنتُ أمشي في الشارع. فرأيتهم يضربون محمد علي وهو ذاهب إلى بيته.» أحدهم: «اذهبْ.» أحدهم: «اعتقلوه. لماذا يتدخل في ما لا يعنيه؟!» «اتركوه.» تركوني. أخذوه.

عمّان: ملاحظات على هامش الحركة المساندة للانتفاضة ـ محمد علي كيانًا سياسيًا عقلانياً

بعد أيام، وجدني هذا المحمد علي بالذات. وحصلتُ منه على إفادة موقّعة بما جرى معه. إنه طالب في كليّة، يعمل نصف النهار ليعيل عائلته، لكنه يطمح إلى الحصول على شهادة. عمره خمسةٌ وعشرون عامًا. ذهبوا بعد الإفراج عنه إلى كليّته وهدّدوه. بحث عني ليشكرني، وهو الذي يستحقّ الشكر. ولكنه طلب مني بعد ذلك ألاّ أذْكر اسمَه في أيّ مكان، وألاّ أثير حوله ضجّة. ولم أره بعد ذلك.

هو واحدٌ من مئاتٍ مثله. فكرتُ مليّاً بأمر محمد علي. إنه أذكى بكثير ممّا يعتقد المثقفون. فمحمد علي مستعدٌّ لتحمُّل ضربات الأنظمة والصهاينة، ولكن ليس بالضرورة عندما تشاء هذه الشخصيّةُ المشهورة أو ذلك الحزب. إنه مستعدٌّ للموت والسجن كما أثْبَتَ مرارًا، ولكنْ فقط عندما يَشْعر أنّ شيئًا مفيدًا قد يَنْجم عن ذلك. محمد علي مستعدٌّ للمخاطرة بسُبُل عيشه واستقرارِ عائلته، ولكنْ عندما يأمل أنّ ذلك لن يكون بلا جدوى.

يختلف الأمر كثيرًا بين نزول محمد علي إلى الشارع وتنزُّهِ مجموعةٍ من «المسيّسين» ضمن سياج الخطوط الحمراء. فهو يَعْرف أنّ جهاز الأمن صُمِّم من أجله بالذات. والخَطْب يصير أكثرَ وحشيّةً عندما يتعلّق بأشخاص حقيقيّين إذا خرجوا من مكان الدراسة والعمل إلى الشارع؛ فالأنظمة تخاف كثيرًا من محمد علي، لأنّ كلّ وجودها يَعْتمد على قدرتها على السيطرة عليه.

الأمل العقلانيّ بالنصر

إذا تأمّلنا تاريخَ محمد علي الحديث، سنجد أنّ ما يحرّكه ليس العواطف الهوجاء، كما يدّعي البعض، بل الأمل العقلانيّ. عبد الناصر مثلاً أعطى الناسَ أملاً بالنصر، وكذلك فعلت الثورةُ الفلسطينيّة في نهاية الستينيّات بعد هزيمة عام ١٩٦٧. العراق أعطاهم أملاً أيضًا قبل بدء حرب الخليج الثانية. وحتى بن لادن أعطاهم أملاً بأنّ الوقوف في وجه الولايات المتحدة ممكن. محمد علي داهية سياسيّ، في الواقع. إنّه يعطي الأملَ لمن يعطيه أملاً، فيَدْعمه. على السطح، قد يبدو محمد علي مشوَّشًا وحائرًا. في تظاهرات عمّان، مثلاً، تراه يحمل صورًا لزعماء لا يُطيقون بعضهم بعضًا، وتسمعه يَهْتف لبن لادن والسيّد حسن نصرالله ولصدّام حسين بالتوالي، ثم لحماس والجهاد وكتائب الأقصى وأبو علي مصطفى، ثم لحزب اللّه بل ولياسر عرفات (فقط عندما وقع تحت الحصار). لكنّ محمد علي **هو** الذي يحاول أن يسيِّر الزعماءَ والأحزابَ. حيثما رأى نقطةَ صِدامٍ جديّةً مع حكومة الولايات المتحدة أو الحركة الصهيونيّة، ولو كانت عابرةً، عَزَّزها ودَعَّمها ويُدعِّمها. إنّه يفكّر إستراتيجيّاً، لا بل بطريقة أكثر انفتاحًا من الكثير من المثقفين والقوى السياسيّة. لكنْ أيّاً كان الوجه الذي دَعَمه، فإنّك تراه يقول الشيءَ نفسه دائمًا لمن يصادم حكومةَ الولاياتِ المتحدة أو الحركة الصهيونيّة: «أنا احتياطُكَ الاستراتيجيّ. استفِدْ منّي. سأغنّي لحنَكَ، من دون شروط، سوى أن تتابع طريقكَ.» ولكنّ ذلك لا يعني أنّ محمد علي لا يَعْرف أنّ صدّام ونصرالله وبن لادن وعرفات (حتى وهو تحت الحصار) عبارةٌ عن محتويات مختلفة تمامًا.

الأمل العقلانيّ يعني أنّ النزول إلى الشارع لن يكون بلا جدوى. المذهل أنّ محمد علي يعود إلى الشارع حتى بعد تحطّم آماله السابقة، خيبةً بعد خيبة. إنه يمتلك الكثيرَ من القوّة في الداخل. عليه أن يعيش وأن يستمرّ، ولكنه لن يَحْجب دعمَه عن أيّ طرف يَصْمد في الميدان أو يصادم حكومةَ الولايات المتحدة والحركة الصهيونيّة، لأنه يعرف غريزيّاً أنّ مصلحته الحقيقيّة تكمن هناك. أما كيف يستفيد هذا الطرفُ من دعم محمد علي له، فهي مشكلةُ ذلك الطرف، لا مشكلة محمد علي.

كم مرةً طلَبَ محمد علي من حزب الله أن يَفْتح له بابَ التطوُّع في صفوفه؟ وكم مرّةً طلَبَ ذلك من العراق في حرب الخليج الثانية، ومن الثورة الفلسطينيّة خلال اجتياح لبنان عام ١٩٨٢؟ وكم مرةً

. فلسطين وتحرير الشارع العربيّ .

ما جرى في الشارع العربيّ دليل على الحاجة إلى التنظيم والقيادة الشعبيّة

أَحْجم محمد علي عن النزول إلى الشارع عندما لم يكن يعتقد أنّ ثمة فائدةً من ذلك، حتى عندما كان الموقف يبدو وكأنه يقتضي النزول، إذا وضعنا حسابَ الربح والخسارة جانبًا؟

بالمقابل، عندما تكون قيادةُ التحرُّك ضعيفةً أو انتهازيّةً، أو عندما تبدأ المفاوضات السريّة والتنسيقُ الأمنيّ، أيْ عندما تقلّ جدّيّةُ الصِّدام مع أعداء الأمة، فإنّ الأمل يقلّ في أن تُثْمر التضحياتُ اللازمة عند النزول إلى الشارع شيئًا ملموسًا ولو على المدى البعيد. لذلك لا تسيطر الأنظمةُ على محمد علي بالقوّة فحسب، بل بنشر الإحباط، أيْ بمصادرة الأمل أيضًا. وتوجِّه الأنظمةُ آلتَها الإعلاميّة وأجهزتَها للعمل ضمن هذا البرنامج.

أما اليوم، فإنّ أحد أهم العوائق أمام تبلور حركة الشارع العربيّ وتطوّرها هو غيابُ أيّ نوع من القيادة الجماهيريّة، أو غيابُ التنسيق بين أجزائها. وعاقبة ذلك هي أنّ غياب التنظيم أو التنسيق عن حركة الشارع يَتْرك كلَّ محمد علي ليواجه جبروت نظامه العربيّ بمفرده. تصبح المواجهةُ بلا جدوى هنا، فيحافظ محمد علي على قواه لمعاركَ ظروفُها أفضل.

تُصْدر هذه الشخصيّةُ المرموقةُ أو تلك المجموعةُ نداءاتٍ لمحمد علي ليفعل هذا أو ذاك، في سياق لا يعنيه. لكنّ محمد علي لا يتحرك بكبسة زرّ. فقد تعلَّم أن لا يثق بالخُطَباء ورموز أحزاب المعارضة «المشروعة.» لكنّ الضغوط تتفاقم أحيانًا، فينزل إلى الشارع بشكل عفويّ تمامًا، ويجد أقرانَه حوله، فيَشْعر بالقوّة، ومن ثمّ بالأمل، فيخاطر بكلّ شيء، ويسير. ترتعد فرائصُ الأنظمة. في البداية تحاول هذه الأنظمة أن تساير الشارعَ كي تحتويَه؛ فإذا فشل ذلك، يبدأ القمعُ العنيف. ولو وُجِدَتْ آليّةٌ تنسيقيّةٌ ما لحركة الشارع هنا بين القيادات الميدانيّة، أيْ لو وُجِدَ شكلٌ من أشكال التنظيم الذي يستطيع أن يَحْصد على الأقلّ بعضَ الإنجازات السياسيّة من التضحيات، فإنّ محمد علي كان سيستمدّ سببًا وجيهًا للأمل، ومن ثمّ للبقاء في الشارع، وللتضحية أكثر. أما في غياب ذلك، فإنه يكون قد أوصل رسالة سياسيّة على الأقل ولو بثمنٍ باهظ. وبدون الأمل العقلانيّ بنتائج ملموسة، تصبح التضحيات بلا جدوى؛ ولذلك يحافظ محمد علي على قواه.

قد يكون من المفيد من جهة أخرى أن نَفْحص الطريقة التي يسيطر بها النظامُ العربيُّ على ما يسمّى «التجمُّعات غير المشروعة» باستخدام أسلوب صِمامات الأمان. فمادام عددُ المتظاهرين صغيرًا، ومادام فضُّ الاحتجاج قد أَمْكَنَ بسهولة نسبيّة، فإنّ النظام يَمْنع هذه الاحتجاجات بشكل كامل، أو يَحْصرها في أماكن مغلقة. عندما يزداد عددُ المتظاهرين ويصبحون أقلَّ هدوءًا، يَسْمح النظامُ على مضضٍ بالاحتجاجات، ولكنّه يحاول أن يوجِّهَها نحو مساربَ آمنةٍ بعيدًا عن نقاط الضغط المؤثِّرة، أيْ بعيدًا عن السفارة الصهيونيّة أو الأمريكيّة مثلاً، ويحاول توجيهَها نحو مجلس النواب (الصُّوَريّ أو المحلول) أو نحو أحدِ مكاتب الأمم المتحدة. وعندما لا يَشْفي هذا غليلَ المتظاهرين إذا ازداد عددُهم وتصاعدتْ وتيرةُ احتجاجهم، يلجأ النظامُ إلى قيادات النقابات والمعارضة «المشروعة» لإحباط التحرُّك الشعبيّ. أما إذا فشل كلُّ هذا، وخرج الناسُ للاحتجاج على هواهم، فإنّ قوات الأمن تهاجم طليعةَ التظاهرة بشكل وحشيّ لإجبارها على التفرُّق، وهي تَعْرف أنّ الناس الذين تجمّعوا بشكل شبه عفويّ لا يَمْلكون آليّةً تنسيقيّةً لإعادة تجميع قواهم. وفي بعض الحالات، يتابع النظام المطاردات بعيدًا، وبشكلٍ انتقاميّ تقريبًا، ويأخذ في طريقه الكثيرَ من عابري السبيل.

وقد يحدث عندما تستقرّ حالةُ الإحباط أن تَنْتشر النزعاتُ القُطْريّة والطائفيّةُ والقَبَليّةُ والانتهازيّةُ والظلاميّةُ وغيرُها، ويحاول النظام أن يستفيد منها كثيرًا لتوطيد أركان سيطرته. ولكنْ لنلاحظْ أيضًا أنّ هذه النزعات تكون في أضعف حالاتها عندما تَشْعر الأمةُ بالقوّة: عند تأميم قناة السويس، أو عند انطلاق الثورة الفلسطينيّة، أو عند تحرير جنوب لبنان، أو عند صمود مخيّم جنين، الخ... وفي المقابل،

عمّان: ملاحظات على هامش الحركة المساندة للانتفاضة ـ محمد علي كياناً سياسياً عقلانياً

نجد هذه النزعات تستشري أكثرَ ما تستشري عندما يَفْقد محمد علي الأمل: بعد هزيمة ١٩٦٧، أو بعد انهيار الاتحاد السوفياتيّ، أو ضرب العراق، أو توقيع أوسلو ووادي عربة. فهذه النزعات تَقْترن في التاريخ العربيّ الحديث بغياب نقطة الضوء، أي النقطةِ المرجعيّة التي تَأْخذ على عاتقها مهمّةَ التصدي لقوى الهيمنة الخارجيّة ومشاريعِها وامتداداتِها الداخليّة، أيْ أنها ترتبط بغياب الأمل العقلانيّ بالنصر.

النهضة تبدأ في العقل، أَمْ في الشارع؟

الخلاصة هي أنّ المشروع النهضويّ العربيّ لا يبدأ من إحداث ثورةٍ ثقافيّةٍ في عقل محمد علي أولاً لتخليصه من رواسب العصور، على ما يَزْعم البعض، بل يبدأ من العمل في الشارع. فهذا العمل هو الذي يُمْكن أن يُنْتج الحركةَ الشعبيّةَ المنظَّمَةَ التي تُسْهم بشكل منهجيّ في صنع الأمل العقلانيّ بالنصر، وتساعد من ثمّ على تحقيق أهداف الأمة ـ ومنها الارتقاءُ «من ظلام العصورْ إلى عالمٍ كلُّ ما فيه نورْ،» على حدّ تعبير الشاعر بدر شاكر السيّاب. فالمشكلة الراهنة ليست في رأس محمد علي، بل فينا، في المثقف والكادر السياسيّ العربيّ، في عدم قدرتنا على العمل معًا لإيجاد أُطُر تنسيقيّة ميدانيّة، وفي عدم إنجاز أداة التغيير التي يُمْكن أن تُقْنع محمد علي فيها. وبدون هذه الأداة، لن تكون هناك ثورةٌ ثقافيّة، بل مشاريعُ لمنظَّماتِ التمويل الأجنبيّ لإلحاق محمد علي بثقافة العولمة.

إنّ ما جرى في الشارع العربيّ خلال انتفاضة الأقصى دليلٌ ساطع على الحاجة إلى التنظيم والتعبئة والرؤيا الإستراتيجيّة والقيادة الشعبيّة، من تحت: أيْ أنّه يُثْبت الحاجةَ إلى حركة شعبيّة عربيّة منظَّمة. فلنلاحظْ أنّ هذا الشارع كان يموج بالتظاهرات والصدامات من المغرب إلى البحرين: ولكنْ لأنّ الحركة الشعبيّة كان يعوزها التنظيمُ والهدفُ الواضح، فإنها لم تستطع أن تحافظ على ديمومتها أكثرَ من بضعة أسابيع ـ في تشرين الأول/أوكتوبر ٢٠٠٠ في المرة الأولى، وفي بدايات الربيع في ٢٠٠٢ في المرة الثانية ـ على عكس الحالات التي وصلتْ فيها الحركةُ الشعبيّةُ إلى النصر، كما في إيران والفليبين وغيرهما، حيث وُجِدَ قَدْرٌ من التنظيم ووضوح الهدف، ومن ثمّ الديمومة. فإذا هاجمتْ حكومةُ الولايات المتحدة العراقَ مجدّدًا كما هو متوقَّع، فقد تتكرر الحركةُ العفويّةُ نفسُها، لنعود بعدَها إلى اجترار الإحباط والنزعات المرافقة له بعد إيصال الرسالة بثمنٍ باهظ، وليعود البعضُ إلى محاولة علاج الأعراض بالحديث عن ثورة ثقافيّة أو الحاجة إلى خلق إنسانٍ مسْلمٍ أو عصريٍّ أو معولَمٍ أولاً!

إنّ الانتفاضة الفلسطينية التي بدأتْ بهبّة عفويّة يوم ٢٠٠٠/٩/٢٨ ما كان يمكن أن تستمرّ كما استمرّت لولا وجودُ قوى منظّمة مثل «حماس» و«الجهاد» وقواعد «تنظيم فتح» و«كتائب الأقصى» و«الشعبيّة» والقيادات الميدانيّة المحليّة التي أبقتْ شعلةَ الانتفاضة متوهّجةً. واليوم، إذا خفتتْ شعلةُ الشارع العربيّ، فإنّ ذلك لن يكون بسبب تقاعس محمد علي أو عبقريّةِ الأنظمة العربيّة، بل بسبب عدم وجود حركة شعبيّة عربيّة بكل ما في هذه الكلمات من معنى. وتبقى المهمةُ السياسيّة المركزيّة في هذه المرحلة الراهنة، وإنْ لمجرّد دعم انتفاضة الشعب الفلسطينيّ، هي مهمة إيجاد آليّةِ تنسيقٍ فعّالةٍ في الشارع العربيّ يُمْكن أن يَعْمل من خلالها محمد علي.

عمّان

إبراهيم علّوش

كاتب فلسطينيّ شابّ. أستاذ الاقتصاد في جامعة البتراء في عمّان. عضو رابطة الكتّاب الأردنيّين.